روايات الحسناء

غرامة ادما

فنفرت ادما من امها وذهبت الى الجنينة شاكية باكية . فتبعتها الام حالاً واخذت تلاطفها تخفيفاً لحدة استيائها حذراً عليها من شدة التأثر . وجلستا في ظل شجرة كبيرة بين الورد والفل والياسمين . وكانت الفتاة تبكي بكاء مراً ولا تريد ان تتسلى . وكان الدمع يزيد خديها المتوردين التهاباً لانه بخار عواطف غالية بفؤاد ملتهب . وعبثاً حاولت امها اقناعها بافضلية اديب عَلَى جميل بعد ان بينت لها مآل غلطها ونبهتها الى سوء مستقبلها ان هي اصرَّت عَلَى عنادها ولم ترض بالاول دون الثاني . ولما رأتها لا تتحول عن عزمها ولا تعتبر بما روته لها من الحوادث والعبر ولم يعد عندها برهان تقنعها به بعد ان كلَّ لسانها مدة شهرين بلا طائل تأوهت من فؤاد مألوم وقالت بلهجة مؤثرة

- يعز علي يا عزيزتي ان اراك جاهلة اسباب السعادة العائلية بهذا المقدار وموثرة من شؤون الحياة القشور عَلَى اللباب مجاراة لما يختلج الآن في جنانك من عواطف الطيش والاغترار . ويكدرني بالاكثر عدم ثقتك بي وتوهمك انني ظالمة لا اراعي حاساتك ولا ابتغي لك الرفاهة والرخاء عَلَى انك فلذة كبدي وما يسرك يسرني . فتجني اذاً بحريتك ولا تنسي قيامي بواجباتي نحوك وتاكدي حنوي عليك ولا تخالبني مستبدة بك . غير اني متألمة من قصر نظرك وعدم تبصرك بالعواقب . وهذه اخر مرة اكلمك بهذا الشأن فاليوم بعد اليوم مرجعه اليك

- تدهشني ملاحظاتك يا اماه فكانك من بقايا تلك الايام القديمة اذ كانت الامهات مستبدات بالبنات ومع كونك متعلمة متهذبة اراك تتكلمين

كاولئك العجائز الجاهلات الغبيات اللواتي يعرفن بما لا يعرفن وينسين ما كنا يتطلبنه في زمن الصبا . فاعوذ بحنانك واخلاصك من ان تجوري عليَّ بعد وارى ما قلتيه كافياً فلا تزيديني منه ايضاً وحسناً فعلت بانهاء المداولة عَلَى هذه الصورة لئلا تدفعني المقاومة والمانعة الى ما ترضينه لابنتك . وحسبي منك منذ الان البركة والدعاء فقط آملة ان تريحي بالك من جهتي ولا تشغلي نفسك بما لا فائدة منه . انني بلغت الرشد وصرت حرة مستقلة اعرف حقوقي وواجباتي وافهم مصلحتي اكثر من سواي . ولست جاهلة كما قلت بل متمدنة عَلَى ذوق العصر . صرفت زهرة العمر في المدارس اتعلم اللغات والتطريز والتفريج وطالعت الروايات الفرنساوية والانكليزية حتى والعربية ايضاً واتقنت الرقص والموسيقى وعاشرت الشبان والصبايا واتبعت الازياء بتمامها وترددت كثيراً الى المراسح والملاعب والمتنزهات وبالاجمال لم يفتني شيء من كماليات فتيات هذه الايام ومع كل هذا تعديني قاصرة وتريني باحتياج الى ارائك وملاحظاتك في امر خطبتي . ان في هذا منتهى العجب ياماما .. كيف ترغبيني باديب وهو شاب متوسط الحال فقط ومقتصد ايضاً لا يستطيع اقتناء مركبة خصوصية بجوادين غاليين ولا الانفاق بسعة كالاغنياء . ابوه وامه مدققان كثيراً في اساليب المعيشة لا يتغاضيان بتة عن اي شيء كان من واجبات الحياة فلا يمكنانني مما اشتهي واريد . ولعل اجلهما يطول الى سنين عديدة فاظل اسيرة الى ما شاء الله . وهو يظل منهمكاً بالاشغال العمومية فوق اشغاله لاهم له الا الاستفادة والافادة . ويأنف من انتظاري عَلَى باب الكنيسة او المرسح ومحادثتي برهة عَلَى مشهد من اترابي ومرافقتي عَلَى الطريق بلا تكليف . ولا يلحقني الى حيث اذهب ويمازحني ويضحكني بالحرية . وقلما ترينه غاوياً زاهياً بلا تفكر . وتعلقه بشقيقاته ووالديه واقاربه

واصدقائه شديد غريب اذ يشعر معهم شعوراً حاداً فتؤلمه اوجاعهم وتسره افراحهم وهذا ما يؤخره عن الاستسلام اليّ وقد يمنعه من ان يكون بتمامه لي فضلاً عن انه جدّي الاخلاق متأنٍ كثيراً مدقق ومرتب باقواله واعماله (لا يعيش الا على القاموس) بعكس جميل الغني الغاوي الذي لا يهمه شيء في الدنيا الا اللهو والمسرات وسواء لديه البشلك والليرة فانه وحيد لا ام له ولا اب ولا شغل يلهيه عني في النهار ومهما طلبت منه يأتيني به في الحال فاتبع الازياء زياً فزياً واقتني المركبات الفاخرة واتنزه كل صباح ومساء في ضواحي المدينة ومتنزهاتها واشترك بالمراسح والتيارات اشتراكاً سنوياً فلا تفوتني رواية ولا لعبة واسلم بيتي الى الخادمات فارتاح من عناء ترتيبه وادارته ولا القيد بالسهرة في البيت بل اسهر اينما شئت لحينما اريد وانام الى الظهر اذا لم يأتني احد ولا ارغب في النزهة . واكون سيدة عصرية اتمتع باطايب الحياة كالاميرات وامثل الفردوس على الارض فتتشبه بي جميع السيدات

ومرت ايام على هذا الحديث والفتاة تهتم باعداد الجهاز دون ان يكون للأم رأي فيه وبغير رضاها زفت ادماء الى جميل باحتفال عظيم

بعد عشر سنوات من تاريخ هذا العرس جاءت ارملة بثوب الحداد الى شاطيء البحر عند مغيب الشمس وجلست تفكر في نفسها وما صارت اليه من الذل بعد العز والفقر بعد الغنى . واذا بمركبة جميلة يجرها جوادان ثمينان مرّت من امامها بسرعة تقلّ سيدة وقرينها وصبيين وبنتاً وكلهم باللباس الفاخر على آخر زي فما وقعت عيناها عليهم الا وصرخت صوتاً قوياً نبه الخواجه اليها فالتفت فرآها ترتمي على الصخر مغشياً عليها وعرضة للسقوط في البحر لدى اقل حركة فاوقف المركبة واسرع وقرينته الى احتضانها ومداواتها وجاء بكرهما بالماء من محل قريب فرشاها به

وما كادت تفيق وتتأكد منقذيها حتى عاودها الغشيان وطال اكثر من الاول ولما افاقت بكت من شدة الحزن والخجل ولم تقوَ الا على جملة واحدة لفظتها متقطعة بشفتين مرتجفتين — الله يكافئكم عني فلا تواخذوني على هذه الثقلة التي سببتها لكم — فطيبوا خاطرها ولم يستنطقوها استطلاعاً لاحوالها الخصوصية كعادة بعض الناس بل تغاضوا عن ذلك تأدباً ولم يسألوها حتى عن اسمها لما رأوه من رغبتها في التكتب والتحجب ومع جهلهم من هي تمام الجهل قد موالها مركبتهم لتوصلها الى حيث تريد لان رجليها لم تعودا تحملانها بعد هذا التأثر فابت اولاً ولما تاكدت عجزها عن المشي وعدم وجود مركبات في ذلك المحل استسلمت الى القدر باكتئاب والتياع وسارت فيها الى البيت شاكرة آسفة ولما وصلت اليه نقدت الحوذي كل ما في جيبها حلواناً وروجت منه بانكسار قلب قبول تلك المناليكات الثلاثة بمثابة فلس ارملة لانها كانت حينئذ لا تملك سواها وقالت له- بلغ الخواجه اديب ان ادماء ممتنة له الى الابد ونادمة كثيراً على الماضي

فلما بلغ اديب هذا الكلام عرف هذه الادماء جيداً فحدَّث عنها قرينته وجاء واياها في اليوم التالي لعيادتها فوجدا امها عندها وكلتاهما باكيتان فلم يستحسنا ازعاجهما باستطلاع اسباب البكاء ولا تفوها بجملة تؤدي الى الاستفهام بل اكتفيا فقط بالاطمئنان عن صحة الارملة المسكينة وابديا استعدادها ان لزم الامر لخدمتهما ولما هما بالانصراف استوقفتهما ادماء سائلة اياها بدالة الامل ان يكونا شاهدين على اقرارها بالندامة الى امها . فبقيا كرامة لها واهتماماً بامرها واخذت هي تبكي وتقول

- يشهد الله يا اماه انني كنت مغشوشة ضالة لا افهم من شؤون الحياة الا الظل الزائل ولا ابصر من مظاهرها الا المبرقش . فتوهمتك جائرة عليَّ

وترآت لي السعادة في مخالفتك فعصيتك واقترنت بجميل . وما اشدّ ما كانت ندامتي بعد ذلك . آه كم انا نادمة يا اماه . ولكم من مرة سألت الله افلاقي من الشقاء بفقد الحياة . تمنيت الموت مراراً ورغبت فيه كثيراً تخلصاً من ذاك البؤس فوقعت في هذا . وكأنه رحمه الله كان متعمداً تعاستي بحياته ومماته على انه غير مسؤول عن كل به لان ذلك نتائج وراثة وتربية وتعليم ولا قبل لانسان على معاكسة ما فطر ونشأ وشبّ عليه . اواه على تلك الاحلام الذهبية والامال الزاهية تلاشت كلها مع الايام ولم يبق لي منها غير البكاء والانين . عشرة اعوام قضيتها بالعذاب والهمّ حتى ذاب جسمي ولم يعد يعرفني حتى اعرف الناس بي كما حدث بالامس على شاطىء البحر يا خواجه اديب . انا لا الوم احداً الا نفسي . تعاميت عن كل سيئاته التي عرفتها ولم ابحث عما لم اعرفه بل اكتفيت بانه غني ووحيد وبطال وتوهمت كل السعادة في الثروة والبطالة ولم انتبه لغير ذلك حتى وصلت اليه . كان ينفق بلا حساب فحسبته كريماً جواداً ويقامر بلا تروٍ فنسبته للرغبة في معاشرة الذوات وبسكره اينما كان فعذرته على محبته للطرب ويتناول الادوية بكثرة فاظنها للتقوية فقط ويهمل الاعتناء بامراضه والتدقيق باستثمارها فعددته انوفاً يستقل بلادة المال وغضضت النظر عن شروده وغيه ولم اعبأ بضعفه ودائه وتلاهيت عن كل شيء ما سوى راحتي ومسرتي ولم افق من غفلتي حتى اقترنت به وجربت نتائج كل ذلك فاذابها عوامل بؤس لا نطاق عدا عما كان عليه من حدة الطبع وفساد الاخلاق ولم يطل بي الحال حتى رايت البيت منهوباً وربه يكاد يصير صفر اليدين فاشرت عليه بالاقتصاد فلم يستطع وبقينا نقاوم الفقر ويقاومنا كل هذه الاعوام دون ان يدري بنا احد الى ان تمكن جميل من جمع اربعمئة ليرة ليشتغل بها في البورصة عملا برأيي انا ففعل